نظرية الشك

محاضرات تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام الصف الأول قسم اللغة العربية الفصل الأول

ا.م.د.إياد سالم إبراهيم

ثبت ان العرب لم يدوّنوا شعرهم في الجاهلية في ديوان أو سفر وانما كان محفوظاً في الصدور تعيه حافظتهم وقلوبهم وأذواقهم وملكاتهم الأدبية الفطرية، ومع هذه الرواية والحافظة القوية فقد ضاع الكثير من الشعر العربي الجاهلي، وأصيب الشعر الجاهلي مع الضياع بالافتراء والاختلاق عليه من قبل بعض الرواة لأسباب كثيرة(

وحمل ذلك النقاد القدامي علي نقد الرواة، وتجريح الوضاعين والتنبيه علي الشعر المنحول ومنهم المفضل الضبي الذي نقد حماد الراوية وبين أكاذيبه، والأصمعي حين نقد الخلف الأحمر وتابعهم بعد ذلك ابو الفرج الاصفهاني في رفضه روايات ابن الكلبي عن دريد بن الصمة وبعض اشعاره، فقد تنبّه الي أنها مكذوبة ملفقة من قبل ابن الكلبي نفسه

وكان من أهم النقاد القدامي في هذا الجانب محمد بن سلام الجمحي، فقد دوّن في كتابه (طبقات الشعراء) كثيراً من ملاحظات أهل العلم والدراية في رواية الشعر القديم واضاف الي ذلك كثيراً من ملاحظاته الشخصية. وقد ردّ مشكلة الانتحال في الشعر الجاهلي الي عاملين: عامل القبائل التي كانت تتزيد في شعرها لتتزيّد في مناقبها، وعامل الرواة الوضاعين، يقول في ذلك: (لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها، استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا ان يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا علي ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة بعد فزادوا في الأشعار).(4)

وقد اشار ابن سلام مراراً الي ما زادته القبائل في شعر شعرائهم كما يقدم لنا طائفتين من الرواة كانتا ترويان منتحلاً كثيراً وتنسبانه الي الجاهليين، طائفة كانت تحسن نظم الشعر وصوغه وتضيف ما تنظمه وتصوغه الي الجاهليين، ومثل لها بحمّاد، وطائفة لم تكن تحسن النظم ولا الاحتذاء علي أمثلة الشعر الجاهلي ولكنها كانت تحمل كل غثاء منه وكل زيف، وهم رواة الأخبار والسير والقصص من مثل ابن اسحاق راوي السيرة النبوية. ورفض ابن سلام والأصمعي وأضرابهما رواية الطائفتين جميعاً فلم يقبلوا شيئاً مما يرويه أشباه حماد الا ان يأتيهم من مصادر وثيقة، وكذلك لم يقبلوا شيئاً مما يرويه ابن اسحاق الا ان يجدوه عند رواة اثبات.(5)

فهؤلاء اثبات حين جرحوا الرواة وكذبوا الوضاعين وبيّنوا الشعر الفاسد المصنوع، وثقوا من ناحية ثانية الشعر الصحيح وعدلوا الرواة الثقاة وشهدوا لهم بالدقة والامانة والعلم. فأبن سلام مثلاً حينما فتح الطريق امام النقاد لجرح الرواة ورد المنحول ومعرفة الحق من الباطل، فانه كذلك حذر الباحثين ونبّههم الي ان: (ما اتفقوا عليه، فليس لأحد ان يخرج منه).(6)

. المستشرقون وانتحال الشعر الجاهلي

قد تحدّثنا فيما سبق عن قضية الانتحال في الشعر الجاهلي عند النقاد القدامي والآن نريد ان نشير الي آراء المستشرقين حول هذه القضية، لان هذه القضية قد أثيرت في العصر الحديث وتناولها المستشرقون في كتبهم ومقالاتهم المتعددة.

وبعد ثماني سنين تطرق للموضوع المستشرق الوارد في 1864اول من تناول قضية الانتحال من المستشرقين هو المستشرق نولدكه سنة مقدمة دواوين الشعراء الستة الجاهليين منتهياً الي ان عدداً قليلاً من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته، مع ملاحظة ان شكاً لايزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب الفاظها وأبياتها. وتابع كثير من المستشرقين الوارد في موقفه الحذر من قبول كل ما يروي للجاهليين، ومنهم موير وباسيه وبروكلمان وغيره

وكان مرجليوث اكبر من أثار هذه القضية في كتاباته حيث ذهب الي رفض الشعر الجاهلي جملة في مقالة بعنوان (اصول الشعر العربي) نشرها في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد يوليو سنة ١٩٢٥م، وقد بني رأيه هذا علي ضربين من الأدلة: أدلة خارجية وأدلة داخلية، سنشير فيما يلي الي نظرته هذه وأهم ادلته الخارجية والداخلية بصورة موجزة:

تكلم مارجليوث عن شكوكه في الادب العربي قبل الاسلام عندما كان يقرا في كتب التاريخ والبلدان وقد ترسخت عنده مجموعة من الاسس والبيانات التي قد نقضت عندما توغل في دراسته للاداب العربية وخاصة في كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي فاذا كانت الاخبار الدينية والتاريخية متناقضة بين الكتب التي تناقلتها ،فمن الطبيعي ان يتسلل الشك الى الشعر وخاصة انه لم ينقل الينا مدونا اي مكتوبا بل تناقلته الالسن من عصر الرواية الى عصر التدوين وقد ثبت نظرية الشك في صحة الشعر العربي قبل الاسلام تبعا لما ثبت عنده من تناقضات وقد قسم ادلته الى قسمين :

الادلة الخارجية :

افترض مارجليون ان الشعر اما ان ينقل عن طريق الرواية الشفوية او عن طريق الكتابة :

الفرض الاول : ينكر مارجليوث ان يكون الشعر وصل الينا بالرواية الشفوية لعدة اسباب وهي :

١-هذا الامر يستلزم وجود فئة من الناس مهنتهم رواية الشعر ونقله ولم يثبت ذلك لانشغال الناس بالفتوحات والدين الاسلامي وامور الجهاد ومن لم يشارك في هذا الامر اتجه صوب البحث عن رزقه

٢- الكثير من الذين حفظوا الاشعارالجاهلية لم ينقلوها على اعتبار ان الاسلام يجب ما قبله وهم ابتعدوا عن نقلها وروايتها لاعتبرها من شان الجاهلية وهم بصدد ترصين الدين الجديد

٣- عدم نقل الاشعار وخاصة التي كانت تثير الشحناء والبغضاء ممن تغنت بانتصارات بعض القبائل واخرى اهتمت بفخر وحماسة القبائل الاخرى مما يثير العداوة والبغضاء فابتعد الناس عن روايتها فضلا عن موضوعات اخرى لاتتناسب مع تعاليم الدين الجديد كالغزل الفاحش والماجن وغيرها

نرد على مارجليوث في هذا الفرض ونقول ان الشعر العربي قبل الاسلام نقل من قبل رواة ثقاة قد رصنوا لنا الشعر واظهروا صحيحه من فاسدة واختص منهم برواية شعر الشعراء والقبائل ولم يكتفوا بذلك بل ان سلاسل الرواة تدل دلالة واضحة على اهتمام فئات بنقل تراث الامة العربية عبر العصور وقد نقلت الاشعار على مافيها من فخر وهجاء ورثاء وغزل على الصورة التي وجد فيها لانه يمثل تراث امة غير مستثنين منه اي شي

الفرض الثاني : مع اعتراف مارجليوث بوجود الكتابة في حياة العرب والقران الكريم يشهد على ذلك الا انه ينكر ان يكون الشعر العربي قد نقل بالكتابة للأسباب الاتية :

١-لو استخدم العرب الكتابة في نقل التراث الشعري لوصلنا من كتبهم الشي الكثير الا انه لم يثبت ذلك.
٢- الشعر يتطور من الشذوذ الى الانتظام والشعر الذي وصلنا يمثل مرحلة متطورة وتالية نظم بعد نزول القران
نرد على الفرض الثاني ونقول ان الشعر العربي قبل الاسلام نقل بالرواية الشفوية وسلاسل الرواة تشهد على ذلك ومعرفة العرب للكتابة لا يدل على انهم استخدموها على نطاق واسع في اول الامر اقتصر استعمالها على المخاطبات الرسمية بين الملوك والسلاطين وبعض مجالات الحياة الاانه لم يثبت انهم استخدموها على نطاق واسع في تدوين الانتاج الابداعي (الشعر) ولو دونت الاشعار لما وقفنا اليوم نتكلم عن رواية وشك وصحة الرواية

الادلة الداخلية : وتتعلق هذه الادلة بالاتي :

١-تشابه الموضوعات والمعاني والمسميات في كثير من نماذج الشهر العربي قبل الاسلام ثم ينتقل الي موضوعات القصائد، ولعله يريد ان يستنتج منه ان اتفاق القصائد الجاهلية في التطرق لموضوعات واحدة بعينها تتكرر في كل قصيدة، أمر يدل علي أنها هذا يدل على انها نهلت من منبع واحد نقول ان تشابه الموضوعات والمعاني والمسميات لا يدل .نظمت بعد نزول القرآن لا قبله على انها نظمت بعد نزول القران فلو توقفنا على اطلال امرىء القيس وجدناها تختلف عن اطلال عنترة بن شداد فلكل منهما موضوع وسبب دفعه لنظم قصيدته التي تحمل اسلوبه وعناصره الخاصة التي تميزه عن اما تشابه المسميات بين الشعراء لايدل على انهم اخذوا معانيهم ومسمياتهم من منهل واحد نقول هذه المسميات وان تشابهت فهي في بعض الاحيان غير حقيقية واستعملها الشعراء كوسائط للوصول للمعاني فليلى عند امرىء القيس ليست كليلى عند الاعشى كذلك الموضوعات فالغزل والرثاء والهجاء وباقي الموضوعات عند اي شاعر من الشعراء لا تتشابه مع الشعراء الاخرين وان اتفقت بالمسميات فلكل شاعر اسلوبه وروحه ودوافعه الخاصة التي دفعته للقول
٢-اللهجات واللغات : وينتقل من ذلك الي اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة وهي نفس لغة القرآن الكريم التي اشاعها في العرب، ويقول: ولو ان هذا الشعر كان صحيحاً لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية، كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل

الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب ينكر مارجليوث الشعر العربي قبل الاسلام بقوله انه نظم بعد نزول القران متاثرا به بحجة ان لغة الشعر الجاهلي كانت خالية من اللهجات التي كانت سائدة عند العرب كما هو حال القران الكريم نقول لمارجليوث ان الشعر العربي قبل الاسلام جاء باللغة العربية الفصحى التي جاء بها القران الكريم وان خلوه من اللهجات التي كانت في لغة العرب لا يدل على ان الشعر نظم بعد نزول القران بل ان التوحد والانفجار اللغوي قد اصاب اللغة العربية باندماج اللهجات وشيوع العربية الفصحى قبل نزول القران بقرون فضلا عن ان لغة قريش اكتسبت عالميتها وذلك لمكانتها السياسية والاقتصادية والجغرافية

٣- القصص الديني : ان ما في هذا الشعر الجاهلي لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي ولا الآهلة المتعددة، انما يعرفون التوحيد والقصص القرآني وما فيه من كلمات دينية اسلامية مثل الحياة الدنيا، ويوم القيامة، والحساب، وبعض صفات الله يشكك ما رجليوث بصحة الشعر العربي قبل الاسلام وذلك لورود الكثير من القصص الدينية التي يذكرها القران الكريم في الشعر العربي قبل الاسلام ليدلل على ان الشعر نظم بعد نزول القران الكريم نقول لمارجليوث ان مجيء القصص الديني في الشعر العربي قبل الاسلام لا يدلل على انه نظم متاثراً بقصص القران بل يدل انه الشعر الذي نظم في جزيرة العرب كان من الطبيعي ان تتسلل اليه الكثير من اخبار وقصص الرسل والانبياء التي ذكرتها الكتب والديانات التي سبقت نزول القران فضلا عن ذلك ان الكثير من الشعراء كان يدين بدين النصارى والديانات الاخرى ومنهم من اطلع على اخبار الامم والرسل والقصص الدينية فمن الطبيعي ان يتاثر النص الشعري بالموروث الثقافي لقائله

.